الإيمان

حقيقته وزيادته وثمرته

لفضيلة الشيخ

عبد الله بن محمد الغنيمان

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

المدينة المنورة

غفر الله له ولوالديه والمسلمين

دار ابن الجوزي

الإيمان

حقيقته وزيادته وثمرته



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس:
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان حقيقته وزيادته وثمرته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويفعل ما يريد، قسَّم خلقه بحكمته إلى شقي وسعيد، وأشهد أن لا إلٰه إلا هو، ولا ربَّ سواه العزيز الحميد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه بالحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلَّى الله عليه وعلى آلٰه وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. . **أما بعد:**

فإن أهم المهمَّات وأعظم الواجبات ما تنال به السعادة التي لا انقطاع لها والنعيم الذي لا فناء له ولا نفاد، وبفقده يحصل الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، ألا وهو الإيمان بالله الذي أرسلت به الرسل. تدعو إليه وتجاهد عليه، وتبشر من قَبِلَه وتحلَّى به، وتنذر من أباه وتخلّى عنه، وقبل الكلام على الإيمان ولوازمه ومقتضياته وثمراته لا بدّ من ذكر حده وتفسيره؛ لأن حدود الأشياء التي تفسرها وتوضحها تسبقها وتتقدم أحكامها؛ لأن الحكم على الشيء فرع على تصوره، فمن حكم على شيء قبل معرفته به المعرفة التامة، أخطأ ولا بدّ. **فأقول:**

تعريف الإيمان وحدُّه:

حدُّ الإيمان: هو التصديق الجازم التام الذي لا يعتريه ريب أو تردد بجميع ما أمر الله تعالى به العباد وأخبرهم به، والانقياد لذلك ظاهراً وباطناً، فهو تصديق القلب واعتقاده وتسليمه لله المتضمن جميع أعمال القلوب المأمور بها شرعاً وأعمال الجوارح، فيدخل فيه الدين كله.

ولذلك كان الأئمة يقولون: هو قول اللسان وعمل القلب والجوارح، فهو اعتقاد وقول، وعمل يزيد بطاعة الله وينقص بمعصيته، فيدخل فيه علم القلب وعمله، وقول اللسان وعمل البدن من العبادات والأخلاق.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: «كان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزي واحد من الثلاثة إلا بالآخر، ويزيد وينقص، لا خلاف فيه عند أهل السُّنَّة وإنما خالف فيه أهل البدع»، ذكره عنه شيخ الإسلام في كتاب الإيمان[1]، وقال: إنه ذكر ذلك في كتاب الأم في الكلام على النية في الطهارة.

فأصل الإيمان: الإقرار والاعتراف بما لله على العبد من الحق الخاص - وهو التأله والتعبد له ظاهراً وباطناً -، وبما له تعالى من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والآثار الناشئة عنها.

---

(١) الفتاوى ٧/٢٠٩، كتاب الإيمان.

وتصديق ما أخبر الله تعالى به عن رسله وملائكته. والإيمان بجميعهم وما وصفهم به في كتابه، وما جاء في سُنَّة رسوله من أوصافهم الحميدة.

والإقرار والتصديق بما بعد الموت مما يكون في القبر وبعد البعث، وبالحساب والجنة والنار، وكل ما أخبر الله تعالى به ووعد بوقوعه وحصوله.

وهذا هو المراد بقوله في النصوص من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ: «**واليوم الآخر**»؛ يعني: أن يكون مصدقاً بكل ما أخبر الله تعالى به، أو أخبر به رسول الله ﷺ مما يكون بعد الموت في القبر من سؤال ونعيم أو عذاب، وكذا بعث وملاقاة الله تعالى وحسابه، ثم الجزاء بالجنة أو النار، والبقاء الأبدي بأحد الدارين.

ولهذا كان الرسول ﷺ يقول في استفتاح تهجُّده: «**ولك الحمد، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، والجنة حق، والنار حق**»(١).

والحق: هو الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل. وكذلك

---

(١) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب التهجد بالليل، وقوله ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، رقم الحديث (١١٢٠)؛ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم الحديث (٧٦٩).

الاعتراف بانفراد الله تعالى بالعبادة والإخلاص له في ذلك، والقيام بشرائع الدين الظاهرة والباطنة من أصول الإيمان اللازمة التي لا نجاة للعبد من عذاب الله تعالى إلا بالإيمان بها، كل ذلك من أصول الإيمان اللازمة التي لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بالإيمان بها، ولذلك رتّب الله تعالى على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار ورضوانه، ولا يكون ذلك إلا لمن أتى بما ذُكر من العقائد وأعمال الجوارح؛ لأنه متى فات شيء من ذلك حصل من نقص الإيمان ما يحصل بفوته من الثواب أو وجود العذاب ما هو مرتب عليه في نصوص الكتاب والسُّنَّة.

وقد أخبر تعالى أن الإيمان المطلق[1] تنال به أرفع المقامات وأفضلها في الدنيا والآخرة، قال جلّ وعلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]، والصدِّيقون أعلى الخلق درجة بعد النبيِّين؛ كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ

(١) الإيمان المطلق: الذي لم يقيد بعمل كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ٧٢] الآية، والمقيد: ما قيد بالعمل.

مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهذا أعلى ما ينال في الآخرة فلا بدّ أن يكون الإيمان الذي وعدوا عليه هذا الوعد الكريم داخل فيه فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عن فعله، فدل ذلك على أن الإيمان المطلق يدخل فيه الدين كله.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّريَّ الغابر من الأفق، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**»[1]، قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟، قال: «**بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»؛ **فهذا إيمان مطلق لم يقيّد بالعمل.**

فالدين كله داخل فيه، فإيمانهم بالله تعالى ورسله ظاهراً وباطناً ـ أعني: في اعتقادهم وأعمالهم وأخلاقهم وكمال طاعتهم لله ورسوله ـ أوصلهم إلى درجة الصدِّيقين، وبوَّأهم الغرف.

ظهور معنى الإيمان ودليله:

ومن المعلوم أن الإيمان فرض على كل أحد من المكلَّفين، وأن الله تعالى قد أرسل رسله تدعوا الناس إليه،

---

(١) البخاري في بدء الخلق في صفة الجنة باب (١٠)، وفي الرقاق صفة الجنة والنار؛ ومسلم رقم (٢٨٣٢).

فلا يمكن أن يكون معناه خافياً غير معلوم للمدعوين، ولا بدّ أن الرسل بيّنته بياناً لا لبس فيه ولا سيما خاتمهم. فلم يكل الله تعالى عباده في ذلك ولا في غيره مما يترتب عليه فلاحهم وعلى تركه عذابهم إلى بيان غيره من الناس الذين لا يزالون مختلفين، بل لا بدّ أن يبيّنه بياناً ينقطع العذر معه، وقد فعل.

ولذلك يجب أن نرجع في بيان الإيمان وما أوجبه الله علينا إلى كتاب الله تعالى وأقوال رسوله ﷺ ففي ذلك الهدى والفلاح، ومن طلب بيان الحق من غير ما جاء به الرسول ﷺ ضلّ ولا بدّ.

وسأذكر بعض الأمثلة في بيان الإيمان وإيضاحه من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «مما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة الرسول ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم.

ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حدّه بالشرع كالصلاة والزكاة، ونوع يعرف حدّه باللغة كالشمس والقمر، ونوع يعرف حدّه بالعرف كالقبض والمعروف في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ونحو ذلك.

فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بيَّن الرسول ﷺ ما يراد بها في كلام الله تعالى ورسوله، فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بيَّنه النبي ﷺ، لم يقبل منه.

وأما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان وتعليل الأحكام زيادة في العلم لا تتوقف معرفة المراد منها عليها.

واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر هي أعظم من هذا كله، فالنبي ﷺ قد بيَّن المراد بها بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب.

فيجب الرجوع في معرفة المراد بهذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله فإنه شافٍ كافٍ، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة.

بل كل من تأمل ما تقول الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان علم بالاضطرار أنه مخالف لما جاء به الرسول ﷺ كما يعلم بالاضطرار أن طاعة الله وطاعة رسوله من الإيمان، ويعلم أنه ﷺ لم يجعل الزاني وشارب الخمر والسارق والقاذف ونحوهم مرتدين كافرين. كما يعلم بالاضطرار أنه لو قدِّر أن قوماً قالوا له: نحن نؤمن بما جئت به بقلوبنا من غير شك ونقر بألسنتنا بالشهادتين إلا أننا لا نصلي ولا نصوم ولا نحج ولا نؤدي الأمانة ولا نصدق الحديث ولا نصل الرحم ولا نفي بالعهد ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك. ما كان

عاقل يتوهم أن النبي ﷺ يقول لهم: أنتم مؤمنون وممن تناله شفاعتي ويرجى لكم أن لا تدخلوا النار، بل أنتم وكل مسلم يعلم بالاضطرار أنه سيقول لهم: أنتم أكفر الناس وأول من يقاتل»[١].

سبب ضلال أهل البدع:

«وأهل البدع ضلُّوا لما أعرضوا عن هذه الطريق، وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها، إما في دلالة الألفاظ أو في المعاني المرادة للشارع، ولا يتأملون بيان الله ورسوله ﷺ، وكل مقدمات تخالف بيان الله تعالى ورسوله ﷺ تكون ضلالة.

وأئمة الإسلام لا يعدلون عن بيان الرسول ﷺ ما وجدوا إليه سبيلاً، ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها القول على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ بلا علم وقول غير الحق، وهذا مما حرمه الله تعالى ورسوله، قال الله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

مثال ذلك: أن المرجئة لما عدلوا عن بيان الله تعالى ورسوله ﷺ تكلموا في مسمى الإيمان والإسلام وغيرهما بطريقة ابتدعوها، **فقالوا**: الإيمان في اللغة هو التصديق، والرسول ﷺ خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها فيكون مراده

(١) كتاب الإيمان ملخصاً. انظر: مجموع الفتاوى ٧/٢٨٦.

بالإيمان التصديق، ثم **قالوا**: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان، ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق: قوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

والجواب عن ذلك من وجوه:

الأول: يقال لهم: اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر غيره، وهو أصل الدين الذي جاء به الرسول ﷺ، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وبه يفرق بين السعداء والأشقياء، وبين من يوالي ويعادي، والدين كله تابع له، وكل مسلم محتاج إلى معرفته، أفيجوز أن يكون الرسول ﷺ قد أهمل هذا كله ووكله إلى هاتين المقدمتين![١].

ومعلوم أن ما استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق من القرآن، ولكن نقل معنى الإيمان متواتر عن النبي ﷺ أعظم من تواتر لفظ هذه الآية.

فالإيمان يحتاج إلى معرفته جميع الأمة، فلا بدّ أن يعرفوه وينقلوه بخلاف كلمة في سورة أكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظونها، فلا يجوز أن يكون بيان أصل الدين مبنياً على مثل هذه المقدمات.

ولهذا كثر الخلاف والاضطراب بين الذين عدلوا عن

---

(١) أي: أن الإيمان في اللغة هو: التصديق، وأن الرسول ﷺ خاطب الناس باللغة من غير تغيير لها.

الصراط المستقيم وسلكوا السبل، وصاروا من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً، وتفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات.

الثاني: يقال هاتان المقدمتان كلاهما ممنوع. فمن الذي قال: إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق، فإنه يقال لمن أخبر إذا صدقه المخبَّر: صدَّقه، ولا يقال: آمنه وآمن، بل يقال: آمن له؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وليس آمن مرادفاً للفظ صدق في المعنى؛ فإن كل مخبر عن مشاهدة يقال له في اللغة: صدق أو كذب، فإذا قال: السماء فوقنا، أو طلعت الشمس، يقال: صدقت، أو يقال: كذبت.

وعلم أن الإيمان ضد الكفر، وليس التكذيب هو كل الكفر، بل كفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله تكذيباً؛ فإن إبليس لم يخبر بخبر كذبه، بل أمره الله تعالى بالسجود لآدم فأبى واستكبر، فكان كفره بالإباء والاستكبار وما يتبعه. وكذلك فرعون وقومه جحدوا الآيات التي جاء بها موسى ظلماً وعلوّاً بعد استيقان أنفسهم لها، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وكذلك اليهود لم يكن كفرهم عن تكذيب، وإنما هو حسد وعناد وجحود كما بيَّن الله تعالى ذلك في القرآن.

أما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، ولم يوجد في اللغة أن من أخبر عن مشاهد أنه يقال له: آمناه.

الثالث: أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق، فإن كل مخبر يقال له في اللغة: صدقت أو كذبت ولا يقال ذلك في الإيمان، فلا تقول: آمنته أو كذبته، بل الإيمان يقابل بالكفر فيقال: هو مؤمن به أو كافر به. والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال له: أنا أعلم إنك صادق ولكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، لكان كفره أعظم من كفر المكذب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فإذا كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، عُلم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، فالكفر يكون تكذيباً، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيبٍ، ويكون عناداً.

فكذلك الإيمان يكون تصديقاً مع الموافقة والموالاة والطاعة والمحبة والنصرة والانقياد والتسليم والرضى والفرح والاغتباط، فيكون الإسلام جزء من مسمَّى الإيمان، كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء من مسمَّى الكفر»[١].

فإن قيل: الرسول ﷺ بيَّن الشيء الذي يجب أن يؤمن به وهو: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر.

---

(١) هذا ملخص من كلام شيخ الإسلام في كتاب الإيمان مع بعض التصرف. انظر: مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨٩.

فالجواب: أن الرسول ﷺ بيَّن ما يؤمن به وما يؤمن له، فيجب أن يؤمن به، ويؤمن له، فالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا هو به، وأما ما يجب من الإيمان له فهو الذي يوجب طاعته طاعة لله تعالى.

ومن العلماء من قال: إن الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف، كما قرر ذلك الحليمي في المنهاج وغيره.

وأما المقدمة الثانية فيقال: إذا فرض أن الإيمان مرادف للتصديق، ولا يكون الإيمان إلا بالقلب واللسان، فعنه **جوابان**:

أحدهما: المنع، فإن الأفعال تسمَّى تصديقاً كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرِّجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»، والشواهد على ذلك كثيرة.

الثاني: أنه إذا كان الإيمان أصله التصديق فهو تصديق خاص كما أن الصلاة أصلها الدعاء، ولكن الرسول ﷺ بيَّن أنها دعاء خاص، والصيام إمساك خاص، والحج قصد خاص، وهذا التصديق له لوازم بيَّنها الله تعالى ورسوله ﷺ، فصارت لوازمه داخلة في مسمّاه عند الإطلاق، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم.

إذا أطلق الإيمان دخل فيه الدين كله

فلفظ الإيمان إذا جاء مطلقاً في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، فإنه يراد به ما يراد بلفظ «البر» و«التقوى» و«الدين» و«العبادة» و«المعروف»، ونحو ذلك من الألفاظ الجامعة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إلـٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»**[1]، فكل ما يحبه الله تعالى يدخل في اسم الإيمان.

وهذا الحديث ظاهر جداً في أن الإيمان يشمل قول اللسان وأعمال الجوارح والقلوب من الاعتقادات والعمل، كما يدخل فيه الأخلاق والإحسان إلى الخلق.

فقد جمع في هذا الحديث بين أصل الإيمان وقاعدته، وهو قول: لا إلـٰه إلا الله، مخلصاً لله في ذلك، ومعتقداً أحقية ما دلَّت عليه ومتألهاً. وبين أدنى الإيمان، وهو: إماطة ما يؤذي المسلمين عن طريقهم. فكيف ما هو أعظم من ذلك من نفع المسلمين من القول والتعليم، وأمرهم بالمعروف

---

(١) رواه البخاري (٥١) في الإيمان، باب أمور الإيمان؛ ومسلم (٣٥)، باب بيان عدد شعب الإيمان.

فالجواب: أن الرسول ﷺ بيَّن ما يؤمن به وما يؤمن له، فيجب أن يؤمن به، ويؤمن له، فالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا هو به، وأما ما يجب من الإيمان له فهو الذي يوجب طاعته طاعة لله تعالى.

ومن العلماء من قال: إن الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف، كما قرر ذلك الحليمي في المنهاج وغيره.

وأما المقدمة الثانية فيقال: إذا فرض أن الإيمان مرادف للتصديق، ولا يكون الإيمان إلا بالقلب واللسان، **فعنه جوابان**:

أحدهما: المنع، فإن الأفعال تسمَّى تصديقاً كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرِّجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»، والشواهد على ذلك كثيرة.

الثاني: أنه إذا كان الإيمان أصله التصديق فهو تصديق خاص كما أن الصلاة أصلها الدعاء، ولكن الرسول ﷺ بيَّن أنها دعاء خاص، والصيام إمساك خاص، والحج قصد خاص، وهذا التصديق له لوازم بيَّنها الله تعالى ورسوله ﷺ، فصارت لوازمه داخلة في مسمّاه عند الإطلاق، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم.

إذا أطلق الإيمان دخل فيه الدين كله

فلفظ الإيمان إذا جاء مطلقاً في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، فإنه يراد به ما يراد بلفظ «البر» و«التقوى» و«الدين» و«العبادة» و«المعروف»، ونحو ذلك من الألفاظ الجامعة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إلـٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»(١)، فكل ما يحبه الله تعالى يدخل في اسم الإيمان.

وهذا الحديث ظاهر جداً في أن الإيمان يشمل قول اللسان وأعمال الجوارح والقلوب من الاعتقادات والعمل، كما يدخل فيه الأخلاق والإحسان إلى الخلق.

فقد جمع في هذا الحديث بين أصل الإيمان وقاعدته، وهو قول: لا إلـٰه إلا الله، مخلصاً لله في ذلك، ومعتقداً أحقية ما دلَّت عليه ومتألهاً. وبين أدنى الإيمان، وهو: إماطة ما يؤذي المسلمين عن طريقهم. فكيف ما هو أعظم من ذلك من نفع المسلمين من القول والتعليم، وأمرهم بالمعروف

---

(١) رواه البخاري (٥١) في الإيمان، باب أمور الإيمان؛ ومسلم (٣٥)، باب بيان عدد شعب الإيمان.

ونهيهم عن المنكر، والإحسان إليهم مما يُسدى إليهم من نفع مادي أو معنوي!.

وجعل الحياء من الإيمان؛ لأنه يحمل العبد على اجتناب كل ما يخل بالمروءة والأخلاق الحسنة، ويحمل العبد ـ أيضاً ـ على فعل الجميل؛ فشملت هذه الشُّعب أمور الدين كلها ظاهرها وباطنها.



معنى زيادة الإيمان ونقصانه

وهو ظاهر في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشُّعب ونقصها، فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف النصوص من الكتاب والسُّنَّة، وخالف الحسَّ والواقع؛ لأن تفاوت قيام الناس بشرائع الدين ظاهر جداً.

وأكثر الآيات التي فيها وصف الإيمان وأهله تشبه هذا الحديث في جعل الأعمال داخلة فيه سواء كانت من أعمال القلوب، أو الجوارح، وكذلك الآداب والأخلاق.

كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

[المؤمنون: ١ ـ ١١].

فبيَّن الله تعالى أن الإيمان في هذه الآيات يجمع هذه الأعمال، فإنه تعالى أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] إلى آخر الأوصاف المذكورة، فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً، ففيها القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات، وبتكميلهم إيمانهم جازاهم ربهم تبارك وتعالى بوراثة الفردوس وهي أعلى الجنان وأحسنها، وهي كما ترى ظاهرة في أن الإيمان جملة عقائد وأعمال وأخلاق ظاهرة وباطنة.

ويلزم من ذلك أنه يزيد وينقص، فيزيد بزيادة هذه الأعمال وينقص بنقصها، كما أن المؤمنين يختلفون في التحقق بها، فبإيمانهم يتفاوتون وعملهم يتفاوت تبعاً لذلك.

ولهذا كانوا على ثلاث درجات: **سابقون بالخيرات** مقرَّبون، وهم: فاعلو الواجبات مع المستحبات، وتاركو المحرَّمات والمكروهات، وفضول المباحات. **وأصحاب اليمين** مقتصدون، وهم: من أدَّى ما وجب عليه، واجتنب ما حرم عليه فقط. **وظالمون لأنفسهم** بترك بعض ما وجب، وتناول بعض ما حرم عليهم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

ومما يوضح معنى الإيمان قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

فوصف الله تعالى المؤمنين بهذه الأعمال التي هي أصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، فإنهم آمنوا إيماناً ظهرت لوازمه ومقتضياته في قلوبهم، وعلى جوارحهم في أقوالهم وأفعالهم، فإذا ذُكر الله عندهم تحركت قلوبهم بالوجل، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات ربهم، وهم في أعمالهم ومراداتهم متوكلون على الله تعالى ومفوضون أمورهم إليه، ويقيمون الصلاة ظاهراً وباطناً فرضها ونفلها، وينفقون أموالهم في مرضاة الله ووجوه الخير فيما يجب ويُستحب، يفعلون ذلك كله بإخلاص وصدق خائفين راجين ثواب ربهم.

فمن كان على هذا الوصف، فقد استكمل الإيمان وتحصَّل على الخير كله وبعد كل البعد من أسباب العذاب، ولهذا قال تعالى فيهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لتحققهم بالإيمان في ظاهرهم وباطنهم والقيام بلوازمه وحقيقته، ولهذا استحقوا هذا الوعد الكريم والفضل الجزيل: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فتضمَّن أمنهم من كل شر ومحذور، ورفعة درجاتهم في النعيم الذي لا يعلمه إلا ربهم ـ تعالى وتقدس ـ.

فهذا جزء الإيمان الشامل الذي يشمل جميع شرائع الدين ويتبعه الانقياد والاستسلام لله تعالى مع الإخلاص والخضوع والذلّ لرب العالمين، وقد أمر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة والإيمان بجميع كُتب الله المنزلة على رسله، وبكل رسول أرسله الله تعالى، وبالإخلاص والانقياد له تعالى وحده بقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

كما أثنى على المؤمنين الذين قاموا بما ألزمهم ربهم من الإيمان الشامل لكل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، أثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فأخبر تعالى خبراً يتضمن رضاه بأن الرسول ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول ولم يفرّقوا بين أحد من رسل الله تعالى، بل آمنوا بهم جميعاً وبما أوتوه من ربهم تعالى والتزموا طاعة الله، مع اعترافهم بأنهم لم يقوموا لله تعالى

بحقه الذي يجب، طالبين منه تعالى أن يحقق لهم إيمانهم وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] مع إيمانهم باليوم الآخر والجزاء ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فمرجع الخلق كلهم إليك ربنا فتجازيهم بعملهم وأنت الذي أحصيت عليهم الدقيق والجليل ولا يضيع لديك عمل العاملين، فنسألك عفوك يوم نلقاك والمزيد من فضلك.



الإيمان بالله تعالى
هو أساس كل خير ومبدؤه

ولا يكون الإيمان للخير إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان، مصحوباً بالخضوع لله تعالى والإذعان له، وأن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يؤثر أمر الله وأمر رسوله ﷺ على أمر كل أحد.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فالإيمان يهيمن على العبد في نفسه وفي سلوكه وأعماله وتصرفاته مع ربه ومع الخلق، ولا ينحرف عن ذلك إلا إذا فقد الإيمان أو بعض أجزائه الواجبة له.

ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فجعل البرَّ هو الإيمان، وفسَّر الإيمان بأنه الإيمان بالله وباليوم الآخر الذي أخبر الله تعالى بأنه آت، ويدخل فيه كل ما أخبر الله تعالى عنه ورسوله من حين يعاين العبد رسل الله الذين يتولون قبض روحه إلى استقرار العبد في الجنة أو النار.

والإيمان بالملائكة يدخل فيه كل ما أخبر الله تعالى عنهم، وكذلك ما ذكره تعالى إلى آخر الآية، فدخل في الإيمان بالله عبادته باتباع أمره واجتناب نهيه وحبه وخوفه والإيمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها وغير ذلك.

ومن المعلوم أن مجرد التصديق في ذلك لا يكفي ولا يكون العبد به مؤمناً.

وواضح من الآية أن الله تعالى جعل الدين كله من العقائد والأعمال هو الإيمان.

فإنفاق المال مع حبه في وجوه البر طلباً لمرضاة الله تعالى، وإقام الصلاة على أمر الله، وإيتاء الزكاة مستحقها، والوفاء بالعهد، والصبر على ما يصيب الإنسان من فقر ومرض وغيره، وكذلك الصبر أمام العدو في القتال كل هذا إيمان.

ودلَّت الآية على أن البر والصدق والتقوى والإيمان

مدلولها في هذه الآية واحد، وهو: الإيمان الذي فصّله الله وبيّنه في هذه الآية وغيرها، فلفظة: «البر» تساوي لفظة: «الإيمان»، فهي جامعة للخير كله، وذكر الله تعالى في هذه الآية الجامعة أن الإيمان يدخل فيه كل ما أمر به وأحبه من الإيمان به تعالى وبملائكته وكتبه ورسله، وبما أخبر به عباده ووعدهم إياه، أو توعدهم به من الجزاء بعد البعث من القبور.

والإحسان إلى عباد الله من أقرباء وغيرهم ببذل المال لنفعهم مع حبه سواء كان مستحباً دفعه كالصدقات، أو واجباً كالزكاة، وكذلك فعل الصبر على المأمور، وعلى المقدور، وعن المحظور، والصبر على الفقر والإعواز، وعلى المرض والضر، وعلى قتال العدو ومجالدته، وكذلك إقام الصلاة، وكل ما أمر الله تعالى به، فمن فعل ذلك تقرباً إلى الله تعالى ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه فهو الصادق في إيمانه.

فتبين بهذه الآية ونحوها أن الإيمان هو فعل ما أمر الله تعالى به والانكفاف عما نهى عنه، ولا بد من الزيادة في ذلك والنقصان؛ لأن الناس يتفاوتون تفاوتاً عظيماً فيما يعملونه من الطاعات، وما يقوم في قلوبهم من الإيمان والتصديق.

وهو يدل على عمق فهم السلف للإيمان حين جعلوه فعل القلب وتصديقه، وفعل الجوارح، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

دخول الأعمال المأمور بها شرعاً في مسمَّى الإيمان

كما أن الآية ظاهرة في الدلالة على دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان، فالله تعالى جعل ما ذكر فيها إيماناً.

فمن أخرج العمل عن الإيمان فقد خالف كتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ وإجماع السلف كما سبق ذكر إجماعهم على ذلك نقلاً عن الشافعي رحمه الله تعالى، وأمثال هذه الآية في كتاب الله كثير.

ومما يدلُّ على ذلك أن الله تعالى نفى الإيمان عمَّن لم ينقَد لحكمه تعالى أو حكم رسوله ﷺ، قال جلّ وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٥].

فبيَّن تعالى أن من أراد التحاكم إلى الطاغوت أنه كاذب

في دعواه الإيمان؛ لأن الإيمان هو القَبول عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ الخبر والأمر بدون نظر أو اختيار لنفسه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، يبيِّن أن عصيان الأمر ليس من خُلق المؤمن، ولكن أكثر الناس يتبع الشيطان في ضلال بيِّن واضح.

ثم أخبر أن نهجهم غير نهج المؤمنين؛ لأن المؤمنين إذا دعوا إلى كتاب الله أو سنَّة رسوله ﷺ قالوا: سمعاً وطاعة، أما هؤلاء فإنهم إذا دعوا إلى ذلك صدُّوا عن الداعي وأعرضوا كأنهم لم يسمعوا.

ثم أقسم تعالى أنه لا يحصل الإيمان لمن لا يحكِّم الرسول ﷺ في كل خلاف يحصل له، ولا بدّ من الرضا بحكمه والانقياد له والتسليم. وإذا لم يحصل ذلك فينتفي ظاهر الإيمان، وباطنه حيث يدخل فيه عمل القلب والجوارح مما يبيّن نفي الإيمان لانتفاء موجبه أو بعضه، في قوله تعالى في وصف من أعرض عن حكم كتاب الله ولو في بعض الأمور: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]، فنفى عنهم الإيمان لتوليهم وإعراضهم عن حكم الله تعالى وهو يدل على أن تحكيم كتاب الله إيمان، والتحاكم إلى غيره كفر.

وظاهر أن هذا التحاكم وعدمه يكون باطناً وظاهراً... أعني: عمل القلب والبدن.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥١]، فالذين لا ينقادون لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، إما ضعيفو الإيمان وإيمانهم لا يمنعهم العذاب، وإما ذاهبو الإيمان، ولذلك لا يلتزمون أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ فلا ينقادون له بخلاف من كمل إيمانه فإنه إذا بلغه أمر الله أو أمر رسوله ﷺ قال: سمعاً وطاعة، وانقاد له مذعناً خائفاً راضياً. فدل ذلك على الملازمة بين الإيمان والعمل فلا انفكاك لأحدهما عن الآخر.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن**»[(١)]؛ يعني: في حالة

(١) رواه البخاري (١١٩) في المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه وفي الأشربة في فاتحته، وفي الحدود، باب الزنا وشرب الخمر وفي المحاربين، باب إثم الزناة؛ رواه مسلم (٥٧) في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية.

تحلِّيه بالإيمان الواجب عليه لا يصدر منه ما ذكر؛ لأن الإيمان يمنعه من ذلك.

وليس معنى هذا أن مرتكب الكبيرة يكون كافراً خارجاً من الدين الإسلامي كما تقوله المبتدعة من الخوارج وغيرهم، بل المعنى: أنه فقد الإيمان الواجب عليه الذي يمنعه من الوقوع في المخالفات.

وهو الإيمان الذي يكون به الأمن من العذاب، أما الإيمان الضعيف فإنه لا يقوى على منع صاحبه من ارتكاب الكبائر، كما أنه لا يقوى على أن يمنع صاحبه من العذاب. وضعفاء الإيمان يتفاوتون في ضعفه تفاوتاً كبيراً، فإنه قد لا يبقى منه مثقال ذرة، فيصبح لا أثر له في كبح جماح صاحبه، فتجده مقصراً في الواجبات، منهمكاً في المحرمات.

ولذلك قسَّم الله تعالى عباده الناجين من العذاب إلى ثلاثة أقسام: ظالمون لأنفسهم، ومقتصدون، وسابقون بالخيرات بإذن الله تعالى. فالظالمون منهم من يدخل جهنم ويتفاوت بقاؤهم فيها حسب إجرامهم وما ذلك إلا لضعف إيمانهم.

فالإيمان بالله تعالى هو أساس كل خير ومبدؤه، ولا يكون أصلاً للخير إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان، مصحوباً بالخضوع لله والإذعان، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ويؤثر أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ على أمر كل أحد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فمن قدَّم شيئاً من الدنيا على محبة الله ورسوله أو على دين الله تعالى فهو فاسق مستحق لوعيد الله تعالى، وإيمانه إما ذاهب أو منقوص الواجب.

فالإيمان تزكو به النفوس وتطمئن به القلوب ويصرف النفس عن دعاوي الشر ويبعثها على الخير، كما أنه يهذب الأخلاق ويطرد الوساوس فلا يبطر صاحبه النعمة ولا يظلم الخلق، ومع ذلك لا يأمن عند التقصير النقمة.

والإيمان يصرف النفس عن دواعي الشر وأسباب المعاصي فيحول بينها وبين الشر، وإذا غفل المؤمن أو نسي أو زلَّ أو اختلس الشيطان منه هفوة تذكّر وذكر ربه فبادر إلى التوبة والإنابة، فكانت حاله بعد ذلك أحسن منها قبل الوقوع في المخالفة كما وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالمؤمن رجّاع نزّاع، أوّاه منيب لا طمأنينة له إلا بربه وذكره، وذلك من موجبات الإيمان. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والمؤمن من يؤلمه ما آلم أخاه المؤمن في أي مكان كان ومن أي جنس هو، ويفرح بما يُسِرُّ أخاه ويفرحه، وذلك أيضاً من موجبات الإيمان.

كما قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»[١]، ويعلم أن كل مصيبة تهون دون مصيبة الدين، فهو يقدم ماله ونفسه في سبيل دينه، فإيمانه يرفع نفسه ويعلو بها أن تذل أو تخضع لمخلوق مهما كان حياً أو ميتاً، ويستهين الدنيا أمام دينه.

قال الإمام البخاري رحمه الله: «باب: من الدين الفرار من الفتن»، ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»[٢].

فالمؤمن كل حياته لله تعالى، فعبودية المؤمن لله وحده وخضوعه وذله له وحده، وهو عزيز بربه مغتبط بدينه وقدوته وإمامه رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٧)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب رقم (٤٥).

(٢) انظر: كتاب الإيمان من صحيح البخاري، ص٩٥، رقم الحديث (١٩).

دلائل زيادة الإيمان ونقصانه

ومن الدلائل الواضحة على أن العمل من الإيمان كون الإيمان يزيد وينقص، وهو أمر لا ينكر فهو محسوس معلوم. فقد تبيَّن بدلائل الكتاب والسُّنَّة معنى الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإسلام أصوله وفروعه. فعلم بذلك ضرورة أنه يزيد وينقص لاختلاف المؤمنين في العلم والعمل وما يتبع ذلك. فهذه المسألة لا ينبغي التوقف فيها ولا الاشتباه بوجه من الوجوه لوضوحها. قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح: ٤]. وقال جلّ وعلا: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًاۙ﴾ [المدثر: ٣١] في آيات كثيرة فيها التصريح بزيادة الإيمان.

والواقع يشهد بهذا، فإن الناس متفاوتون في علوم الإيمان ومعارفه، وفي فروعه وأخلاقه، وأعماله الباطنة والظاهرة تفاوتاً عظيماً. فالمؤمنون كاملو الإيمان، عندهم من أعمال الإيمان القلبية والبدنية ما لا يوجد مثله ولا قريباً منه عند عموم المؤمنين الذين عندهم من ضعف العمل ومن الشبهات والشهوات ما يضعف إيمانهم.

فمن عرف معاني الكتاب والسُّنَّة وآمن بها وعمل فهو أكمل إيماناً ممن فاته شيء من ذلك، فكلما علم الإنسان ما

جاء به الرسول ﷺ فآمن به وعمل به كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك.

وكذلك من عرف أسماء الله تعالى ومعانيها فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيماناً مجملاً، أو عرف بعضها، وكلما زاد العبد معرفة بأسماء الله تعالى وصفاته وآياته كان إيمانه أكمل.

مع أن التصديق والعلم يتفاوتان عند الناس تفاوتاً كبيراً، فمن كان تصديقه جازماً ليس مثل من عنده تردد أو أنه لو شُكِّك لشك.

وهم في العلم أعظم تفاوتاً فإذا كانوا يتفاوتون في معارف القلوب وتصديقاتها فتفاوتهم في أعمال الجوارح ظاهر محسوس، وكل هذا يدل على تفاضل الإيمان وزيادته عند بعض المؤمنين وضعفه عند بعضهم.

فالتصديق المستلزم عمل القلب أكمل من تصديق لا يؤثر في القلب عملاً. والعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل وأتم من علم لا يعمل به صاحبه. والناس يختلفون اختلافاً كبيراً في أعمال القلوب من الحب والخوف والإنابة والتوكل والخضوع والذل لله تعالى، فمن كانت هذه ونحوها عنده أكثر فإيمانه أكمل ممن لم يكن كذلك.

وذكر الإنسان بقلبه ما أمر الله تعالى به واستحضاره بحيث لا يكون غافلاً عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه،

فاستحضار الأمر والتصديق يكملان العمل والإيمان، ولهذا قال عمير بن حبيب الصحابي ﷺ لما سئل عن زيادة الإيمان ونقصانه قال: إذا ذكرنا الله سبحانه وحمدناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصه[(١)].

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان.

وقال معاذ ﷺ: اجلس بنا نؤمن ساعة. ذكره البخاري[(٢)].

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. وقد يكون الإنسان منكراً لأشياء لا يعلم أن الرسول ﷺ جاء بها، ثم يتبيَّن له أنه ﷺ قالها فيصدق بها فيزداد بذلك إيماناً لم يكن منه قبل ذلك.

---

(١) رواه ابن أبي شعبة في المصنف ١١/١٣.

(٢) تعليقاً في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، ووصله الإمام أحمد بن حنبل وأبو بكر بن أبي شيبة في كتاب الإيمان عن طريق عيسى بن عاصم قال: حدثني عدي بن عدي قال: كتب إليَّ عمر بن عبد العزيز: «أما بعد فإن للإيمان فرائض وشرائع...» إلخ. في المصنف ١١/٤٩.

دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان والرد على المرجئة

أما تفاضل الناس في الأعمال الظاهرة فهو محل اتفاق بين أهل السُّنَّة والمرجئة، ولكنهم ينازعون أهل السُّنَّة في دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان **ويقولون**: إذا أطلق عليها أنها إيمان فذلك مجاز، ويجعلون الزيادة في الأعمال والنقص من ثمرات الإيمان ومقتضياته.

وأما الإيمان نفسه فلا زيادة فيه ولا نقصان. **وجواب ذلك أن يقال**: إن الأعمال من لوازم الإيمان وموجباته فيمتنع أن يوجد إيمان تام في القلب وأن لا يوجد عمل في الجوارح، فتصورهم لذلك مجرد نظرية ذهنية لا حقيقة لها في الخارج العملي.

فإذا وجد الإيمان فلا بد من وجود الحب والخوف والرجاء والإخلاص ونحو ذلك من أعمال القلب، ويتبع ذلك قول اللسان وعمل الجوارح.

وقولهم: إن الإيمان حقيقة في التصديق ومجاز في الأعمال.

«**جوابه**: أن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز مسألة

، فإذا لم يصح هذا التقسيم فلا كلام؛ لأن
ساس.

التقسيم فنقول: إن قولكم: إن تناول الإيمان للأعمال مجاز، باطل؛ لأن الحقيقة هي اللفظ الدال على المراد بلا قرينة، والمجاز ما دل عليه بقرينة، وقد تبين من أدلة الكتاب والسُّنّة أن الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال، وإنما يزعم من يخرجها عن الإيمان إذا جاء الإيمان مقيداً بالعمل، فعلى هذا يكون قوله ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة»** حقيقة لا مجاز»[١].

وأما زيادة الإيمان بأعمال القلوب فأمر ظاهر جداً، فالناس يتفاوتون تفاوتاً ظاهراً محسوساً لهم في حب الله ورسوله ﷺ وخشيته والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له، حتى إن الإنسان يجد من نفسه أنه في بعض الأوقات أكثر خوفاً لله ومحبة له وإنابة إليه، كما أن الناس يختلفون أيضاً في سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب والحسد ونحو ذلك من الأخلاق الذميمة.

والواقع أن تفاضل المؤمنين في الإيمان لا يعلم قدره إلا الله تعالى، يدل لذلك ما ثبت في البخاري وغيره عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: مرَّ رجل على

(١) مأخوذ من كلام شيخ الإسلام، كتاب الإيمان.

رسول الله ﷺ، فقال: «**ما تقولون في هذا؟**»، قالوا: حري إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يُشفع، وإن قال أن يُسمع، قال: ثم سكت، فمرَّ رجل من فقراء المسلمين، فقال: «**ما تقولون في هذا؟**»، قالوا: حري إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشفع، وإن قال أن لا يُسمع، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»[1].

فهذا التفاضل العظيم لا بد أنه لأجل ما يقوم في القلب من معرفة الله وحبه وإخلاص العمل له وخوفه ومراقبته؛ فهذا تفاضل لا يضبطه إلا خالقهم العالم بما في قلوبهم، وتبعاً لذلك تتفاوت منازلهم ودرجاتهم يوم القيامة.

وقد سمَّى الله تعالى العمل إيماناً كما سمَّى تركه ومخالفته كفراً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥]، فجعل تعالى ما يعملون به مما

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، رقم الحديث (٦٤٤٧).

أمروا به إيماناً وما يعصونه ويخالفونه كفراً، وهذا صريح في أن العمل يكون إيماناً وعدم العمل بالأمر يكون كفراً.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣]، فقوله: «﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا﴾ يراد بها ـ والله أعلم ـ: العمل، فالتوبة هي: ترك الذنب مع الندم والرجوع إلى الحق، والإيمان هو فعل الحسنات».

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]. فجعل تعالى العمل بالباطل إيماناً به وجحد نعمة الله تعالى كفراً.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]. قاله جلّ وعلا بعدما ذكر ما أحلَّه لعباده من الصيد والطعام والنساء وما حرَّمه عليهم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ إلى آخر ما ذكره من المحرمات، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٣ ـ ٥]، فدلَّ على أن المراد من لم يلتزم بتحليل ما حلَّله وبتحريم ما حرَّمه، وهو عمل ظاهر فهو صريح في تسمية العمل إيماناً ولا يصح أن يكون المعنى: (ومن يكفر بالتصديق) ونحوه. والأدلة على تسمية العمل إيماناً متعددة وفيها كثرة.

فعلم بهذا أن الإيمان الذي في القلب من التصديق

والإقرار والتسليم والحب وغير ذلك من موجبات الإيمان، وأن الأعمال الظاهرة التي هي من مستلزمات الإيمان أنها داخلة في مسمّاه وجزء منه كما هو قول أهل السُّنَّة، فيكون لفظ الإيمان دالٌّ عليها بالتضمن والعموم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ أي: اعملوا بجميع شرائع الإيمان وشعبه ودعائمه وسُنَنه، فاعملوا على تكميل إيمانكم الواجب وتثبيته والاستمرار عليه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ أي: ادخلوا في جميع ما أمركم الله به وكفُّوا عن جميع ما نهاكم عنه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]؛ أي: ارجعي إلى طاعة ربك راضية بها مغتبطة بذلك، وادخلي في عبادته تعالى ولا تخرجي عنها.

وقد يكون العمل لازم للإيمان ومعلول له وثمرة له. فقوله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[1]، دخل في الإيمان عمل القلب وعمل الجوارح كما هو واضح في الحديث، ومثل هذا الحديث في دلالة

(١) سبق تخريجه.

دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، لامتناع وجود الإيمان بلا عمل.

فالعمل لازم للإيمان ومعلول له وثمرة له في مثل قوله ﷺ: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر. والإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[(١)].

فلا يمكن أنه ﷺ يريد إيماناً بلا إسلام، ولا إسلاماً بلا إيمان، ولا إحساناً بلا إيمان وإسلام، فلا بد أن يكون المؤمن مسلماً وأن يكون المحسن مسلماً مؤمناً، أما الإسلام الذي هو الانقياد الظاهري والدخول في الطاعة العامة فقد يوجد في مبدأ الأمر بلا إيمان مؤثر ملزم بالعمل كما قال الله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فهذا يدخل فيه الدين كله والعمل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، رقم (٨) وغيره.

جاء به الرسول ﷺ فآمن به وعمل به كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك.

وكذلك من عرف أسماء الله تعالى ومعانيها فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيماناً مجملاً، أو عرف بعضها، وكلما زاد العبد معرفة بأسماء الله تعالى وصفاته وآياته كان إيمانه أكمل.

مع أن التصديق والعلم يتفاوتان عند الناس تفاوتاً كبيراً، فمن كان تصديقه جازماً ليس مثل من عنده تردد أو أنه لو شُكِّك لشك.

وهم في العلم أعظم تفاوتاً فإذا كانوا يتفاوتون في معارف القلوب وتصديقاتها فتفاوتهم في أعمال الجوارح ظاهر محسوس، وكل هذا يدل على تفاضل الإيمان وزيادته عند بعض المؤمنين وضعفه عند بعضهم.

فالتصديق المستلزم عمل القلب أكمل من تصديق لا يؤثر في القلب عملاً. والعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل وأتم من علم لا يعمل به صاحبه. والناس يختلفون اختلافاً كبيراً في أعمال القلوب من الحب والخوف والإنابة والتوكل والخضوع والذل لله تعالى، فمن كانت هذه ونحوها عنده أكثر فإيمانه أكمل ممن لم يكن كذلك.

وذكر الإنسان بقلبه ما أمر الله تعالى به واستحضاره بحيث لا يكون غافلاً عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه،

فاستحضار الأمر والتصديق يكملان العمل والإيمان، ولهذا قال عمير بن حبيب الصحابي ﷺ لما سئل عن زيادة الإيمان ونقصانه قال: إذا ذكرنا الله سبحانه وحمدناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصه[١].

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان.

وقال معاذ ﷺ: اجلس بنا نؤمن ساعة. ذكره البخاري[٢].

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. وقد يكون الإنسان منكراً لأشياء لا يعلم أن الرسول ﷺ جاء بها، ثم يتبيَّن له أنه ﷺ قالها فيصدق بها فيزداد بذلك إيماناً لم يكن منه قبل ذلك.

---

(١) رواه ابن أبي شعبة في المصنف ١١/١٣.

(٢) تعليقاً في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، ووصله الإمام أحمد بن حنبل وأبو بكر بن أبي شيبة في كتاب الإيمان عن طريق عيسى بن عاصم قال: حدثني عدي بن عدي قال: كتب إليَّ عمر بن عبد العزيز: «أما بعد فإن للإيمان فرائض وشرائع...» إلخ. في المصنف ١١/٤٩.

والإقرار والتسليم والحب وغير ذلك من موجبات الإيمان، وأن الأعمال الظاهرة التي هي من مستلزمات الإيمان أنها داخلة في مسمّاه وجزء منه كما هو قول أهل السُّنَّة، فيكون لفظ الإيمان دالٌّ عليها بالتضمن والعموم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ أي: اعملوا بجميع شرائع الإيمان وشعبه ودعائمه وسُنَنه، فاعملوا على تكميل إيمانكم الواجب وتثبيته والاستمرار عليه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ أي: ادخلوا في جميع ما أمركم الله به وكفُّوا عن جميع ما نهاكم عنه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]؛ أي: ارجعي إلى طاعة ربك راضية بها مغتبطة بذلك، وادخلي في عبادته تعالى ولا تخرجي عنها.

وقد يكون العمل لازم للإيمان ومعلول له وثمرة له. فقوله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١)، دخل في الإيمان عمل القلب وعمل الجوارح كما هو واضح في الحديث، ومثل هذا الحديث في دلالة

---

(١) سبق تخريجه.

دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، لامتناع وجود الإيمان بلا عمل.

فالعمل لازم للإيمان ومعلول له وثمرة له في مثل قوله ﷺ: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر. والإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[١].

فلا يمكن أنه ﷺ يريد إيماناً بلا إسلام، ولا إسلاماً بلا إيمان، ولا إحساناً بلا إيمان وإسلام، فلا بد أن يكون المؤمن مسلماً وأن يكون المحسن مسلماً مؤمناً، أما الإسلام الذي هو الانقياد الظاهري والدخول في الطاعة العامة فقد يوجد في مبدأ الأمر بلا إيمان مؤثر ملزم بالعمل كما قال الله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فهذا يدخل فيه الدين كله والعمل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، رقم (٨) وغيره.

الباطن والظاهر، وذلك أن الإسلام إذا جاء مفرداً دخل فيه الإيمان ولوازمه وأعماله كلها من أصول وفروع، ومثله الإيمان إذا جاء مفرداً كما سبقت الإشارة إليه.

أما إذا اقترن أحدهما بالآخر، فيقصد بالإيمان الأعمال الباطنة وبالإسلام الأعمال الظاهرة كما فسَّره النبي ﷺ بذلك في حديث جبريل، وبهذا تنحل بعض الإشكالات في هذه المسألة.

فاسم الإيمان يطلق على ما في القلب من التصديق والمحبة والتعظيم والمعرفة والإنابة والخوف والرجاء ونحو ذلك، وتكون الأعمال الظاهرة والأقوال لوازم الإيمان وموجباته ودلائله وهي داخلة في مسمَّاه وتسمَّى إسلاماً.

ولكن الإيمان يتضمن العمل. قال رسول الله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب**»[1].

فإذا صلح القلب بالإيمان لزم أن تقوم الأعضاء بالأعمال ولا بد؛ فإن البدن تابع للقلب لا يخرج عن إرادته، فيلزم من صلاح القلب ضرورة صلاح البدن كما قال ﷺ، فالأصل القلب، فإذا كان فيه صلاح وإرادة سرى ذلك إلى الجوارح ضرورة لا يمكن أن يتخلف عمل الجوارح عما يريده القلب.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث (٥٢)؛ رواه مسلم، رقم (٢٦٤٣).

بيان غلط المرجئة في قولهم: إن الإيمان مجرد التصديق

وبهذا يتبين غلط المرجئة الذين يقولون: إن الإيمان هو مجرد التصديق والعلم ليس معه عمل؛ فإن هذا لا يكون ديناً ولا إيماناً، بل هو أمر متخيل لا وجود له في الواقع؛ إذ الأعمال الباعث عليها ما يقوم في القلب من التصديق والعلم والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة.

وكذلك يتبين بطلان قولهم أن عمل ما ظاهره الكفر يشترط في العامل لها أن يكون مستحلّاً لها، وذلك أن عمل ما هو كفر ينافي الإيمان؛ كما هو ظاهر كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وكما عرفنا من ملازمة العمل للإيمان. وأيضاً لا يجوز أن يقيَّد كلام الله وكلام رسوله ﷺ بآراء الناس ومذاهبهم وما تمليه عليهم مراداتهم وأهوائهم.

وكذلك من الغلط عندهم قولهم: إن كل من حكم الشرع بكفره وخلوده في النار فهو؛ لأنه ليس في قلبه شيء من التصديق والعلم، وهذا قول مخالف لكتاب الله تعالى ومخالف للعقل وما يعرفه الناس، فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره فيخالفه، أو يجحد الحق إما حسداً أو رغبة

في الدنيا، أو لمنصب أو هوى، أو لأنه خالف مألوفه ومحبوبه، أو غير ذلك من الأغراض الكثيرة، قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧]، وغير ذلك مما ذكر الله تعالى عن الكفار، يتعللون بها عن اتباع الرسل. والغالب أنهم يعلمون صدق رسلهم؛ لأنهم جاؤوهم بالبينات والدلائل والواضحات، ومن ذلك كُفر إبليس لعنه الله واليهود وغيرهم فإنه بعد معرفتهم للحق والعلم به.

أما ما احتجوا به من كتاب الله وسُنَّة نبيّه ﷺ وأقوال الصحابة مثل قولهم: إن الله تعالى خاطب الناس بالإيمان قبل العمل فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

والجواب: أنهم خوطبوا لما آمنوا بالرسول ﷺ وانقادوا لأمره خوطبوا بالأوامر والنواهي.

والأعمال قبل أن يؤمروا بها ليست من الإيمان، وإنما صارت من الإيمان لما جاء بها الخطاب، فعند ذلك آمنوا بها وامتثلوا ما أمروا به، فكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن تفرض عليهم الفرائض التي خوطبوا بها، فلما نزلت امتثلوها، ولو ردوها ما كانوا مؤمنين. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى

ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فتبين أن عدم قبول الفرائض أنه كفر، ولهذا لم يذكر الحج في الأحاديث التي يذكر فيها أركان الإسلام والأحاديث التي فيها ذكر ما يجب أن يؤمن به المتقدمة في الأمر؛ كحديث وفد عبد القيس[1]، وحديث ضمام بن ثعلبة وغيرهما، وإنما جاء ذكر الحج في الأحاديث المتأخرة التي جاءت بعد فرض الحج؛ كحديث ابن عمر، وحديث جبريل ونحوهما، فلما فرض الحج أدخله رسول الله ﷺ في الإيمان إذا جاء مفرداً، وفي الإسلام إذا جاء مقروناً مع الإيمان.

ومما احتجوا به، **قولهم**: لو كان رجلاً آمن بالله تعالى ورسوله ﷺ بعد طلوع الشمس ثم مات قبل دخول وقت صلاة الظهر لمات مؤمناً وكان من أهل الجنة، فدلَّ ذلك على أن الأعمال ليست من الإيمان.

والجواب: هو ما تقدم أنه لما آمن فهو مستعد ومتهيئ للعمل ومنقاد له، ولكن ما تمكن منه، فمات قبل أن يجب عليه العمل الذي هو صلاة الظهر. أما عمل القلب من حب الله ورسوله وخوف الله ورجاؤه ونحو ذلك فلا بد أنه قائم في قلبه.

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب قول الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، رقم (٥٢٣)؛ رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه، رقم الحديث (١٧).

ومن شبههم في أن الأعمال ليست من الإيمان: أن الله تعالى فرَّق بين الإيمان والعمل حيث يعطف العمل على الإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البروج: ١١]، وهو كثير في القرآن.

والجواب: إن المعطوف قد يكون لا ارتباط له بالمعطوف عليه، ولا يعرف لزومه؛ كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وهذا هو الغالب في العطف، وقد يكون العطف لما بين المعطوف والمعطوف عليه من التلازم والارتباط؛ كقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، فإن من كفر بالله فقد كفر بالملائكة والكتب والرسل، فالمعطوف لازم للمعطوف عليه، وقد يكون عطف بعض على كل؛ كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا عَلَى الصَّلَوَٰتِ وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومنه عطف العمل على الإيمان، وقد يكون العطف لاختلاف الصفة فقط، وإلا فالمعطوف هو المعطوف عليه؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِىٓ أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٤]، وبذلك يتبين بطلان الاحتجاج بعطف العمل على الإيمان فهو لا يدل على المغايرة كما هو واضح.

وأما تفريق الله تعالى بين الإيمان والعمل فهو لا يدل على أن العمل خارج عن الإيمان، وقد مضى أن الإيمان إذا جاء مطلقاً فقد أدخل الله تعالى ورسوله ﷺ فيه العمل،

وذلك لأن أصل الإيمان في القلب والأعمال الظاهرة لازمة له لا يتصور وجوده بدونها، فإذا لم توجد صار ذلك دليلاً على أنه غير موجود، وإذا نقصت فهو دليل نقصه، فعطف الأعمال على الإيمان ليدل على أنه لا يكفي إيمان القلب بل لا بد معه من الأعمال، ولهذا ترجم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيح» بقوله: «باب: من قال: إن الإيمان هو العمل لقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]»، وقال عدة من أهل العلم في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] عن قول: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، ثم ذكر حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟، قال: «**الإيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثم ماذا؟، قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟، قال: «**حج مبرور**»[1].

ومقصوده: أن الإيمان كله عمل، نقيض من يقول: أنه تصديق القلب وقول اللسان فقط، مع إن تصديق القلب عمله وقول اللسان عمله، وبذلك يتبين أن الإيمان كله عمل.

واحتجوا بما رواه الإمام مالك في «الموطأ»: أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ بجارية له سوداء فقال:

---

(١) رواه البخاري، رقم (٢٦).

يا رسول الله، إن علي رقبة مؤمنة فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أتشهدين أن لا إلٰه إلا الله؟**»، قالت: نعم، قال: «**أتشهدين أن محمداً رسول الله؟**»، قالت: نعم، قال: «**أتوقنين بالبعث بعد الموت؟**»، قالت: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «**أعتقها**»(١).

ولا حجة لهم بهذا الحديث على أن العمل ليس من الإيمان؛ لأن الإيمان الظاهر الذي تتعلق به الأحكام في الدنيا لا يلزم منه الإيمان الباطني الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة، فإن المنافقين الذين قال الله في وصفهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، هم في الدنيا على ظاهرهم مؤمنون يصلُّون مع المؤمنين ويصومون ويحجون ويغزون معهم، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد النبي ﷺ، ولم يحكم ﷺ فيهم بحكم الكفار المظهرين للكفر، بل لما مات عبد الله بن أُبي بن سلول وهو من أشهر المنافقين ورثه ابنه عبد الله وهو من خيار المؤمنين، وكذلك غيره من المنافقين، وقوله ﷺ: «**لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم**»(٢) لا يدخل فيه المنافقون، وإن كانوا في الآخرة في

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ، كتاب العتاقة والولاء، حديث رقم (٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم (٦٣٨٣)؛ ومسلم في كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم (٤١١٦).

الدرك الأسفل من النار، فيتبين بذلك أن إخبار النبي ﷺ عن تلك الأَمَة بالإيمان الظاهر الذي تتعلق به الأحكام الظاهرة، وإلا فقد ثبت أن سعد لما شهد لرجل أنه مؤمن قال له ﷺ: «أو مسلم»[1] ـ كرر ذلك ثلاثاً ـ، وذلك الرجل يظهر من الإيمان أكثر مما تظهر تلك الأمة.

فيجب أن يفرق بين أحكام المؤمنين الظاهرة في الدنيا التي تتعلق بها الأحكام، وبين أحكامهم في الآخرة التي يستحقون بها دخول الجنة.

واحتجوا أيضاً بقول ابن مسعود: «اليقين الإيمان كله» ذكره البخاري تعليقاً[2]. **قالوا**: دلَّ قوله هذا على أن الإيمان مجرد التصديق حيث جعل اليقين الإيمان كله فحصره في اليقين.

والجواب: أن ابن مسعود ﷺ ما أراد نفي الأعمال عن الإيمان، وإنما أراد أن يبين أن اليقين هو أصل الإيمان كله، فإذا أيقن القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر انبعثت الجوارح كلها بالعمل والاستعداد للقاء الله ممتثلة أمره مجتنبة نهيه، فيكون منشأ ذلك من اليقين، ولهذا كان يقول في دعائه: «اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفهماً».

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على حقيقة وكان على الاستسلام والخوف من القتل، رقم الحديث (٢٧).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/ ٦٧. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله». الفتاوى ٧/ ٢٢٣.

والخلاصة: أن الإيمان جاء في الكتاب والسُّنَّة مطلقاً؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فإذا جاء مطلقاً دخل فيه جميع ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وتكون الأعمال داخلة في مسمَّى الإيمان عند عامة السلف من الصحابة وتابعيهم وتابعي تابعيهم، وهو مذهب أهل السُّنَّة.

فأصل الإيمان في القلب وهو إقراره بالتصديق والحب والانقياد، ولا بد أن يظهر مقتضاه وموجبه على الجوارح، وإن لم يكن كذلك فالإيمان معدوم أو ضعيف لا تأثير له، قال رسول الله ﷺ: **«ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب»**(١).

والله تعالى بيَّن أن تحقيق الإيمان وتصديقه بالأعمال الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]. ونظائر هذه الآية كثير في القرآن.

---

(١) سبق في ص٤٢.

فالله تعالى حصر المؤمنين الحقيقيين في من اتصف بهذه الصفات، فإذا انتفت عن الإنسان دلَّ على انتفاء الإيمان، وإذا انتفى بعضها أو ضعفت، دلَّ على ضعف الإيمان، فيكون صاحبه مستوجباً للعذاب إن لم يعف الله تعالى.



تلازم العمل والإيمان

وبهذا يتبين أن العمل مع الإيمان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وأن تصور وجود إيمان كامل بلا عمل أمر خيالي لا حقيقة له في الوجود الخارجي.

فالإرادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة يلزم منها وقوع المقدور ولا بد، وكذلك إذا كان في القلب حب الله ورسوله ﷺ استلزم موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ولا بد، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأما إذا جاء اسم الإيمان مقيداً؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البروج: ١١]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]، فهو أيضاً يدخل فيه العمل، وعطف العمل من عطف الخاص على العام.



رد قول المرجئة

ومن المشهور عن المرجئة قولهم: إن المؤمن يقطع بكمال إيمانه، وأن الإيمان لا يتفاوت، بل إيمان آحاد الناس كإيمان الرسل والملائكة ونحو ذلك من القول الجنف.

أما كون الإيمان لا يتفاوت، فقد مضى جوابه وبيان بطلانه بما هو مقطوع به. وأما كون المؤمن يقطع بكمال إيمانه فهو أيضاً باطل ومخالف لما دلَّ عليه كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ، ولما عليه أهل الإيمان من الصحابة وأتباعهم.

قال البخاري رحمه الله تعالى في كتابه «الصحيح»: «باب: خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر». وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول أنه على إيمان جبريل وميكائيل[1].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلِّهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة ﷺ، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجلّ من هؤلاء؛ كعلي بن =

ويذكر عن الحسن: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق»[١]، وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة لقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ومعنى قول إبراهيم التيمي أن المؤمن يصف الإيمان بقوله، وعمله يكون أقل مما وصف، فيخاف على نفسه أن يكون عمله مكذباً لقوله، كما روي عن حذيفة رضي الله عنه قال: المنافق الذي يصف الإسلام ولا يعمل به[٢].

وقال الأوزاعي: قد خاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه على نفسه النفاق[٣]. وسئل الإمام أحمد: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق؟، فقال: ومن يأمن على نفسه النفاق.

وذلك أن النفاق أصغر وأكبر، فالنفاق الأصغر هو نفاق العمل وهو الذي خافه الصحابة وأتباعهم، وهو طريق إلى النفاق الأكبر، فيخشى على من غلب عليه خصال النفاق الأصغر أن ينقله إلى الأكبر فينسلخ من الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. ولهذا خاف

= أبي طالب وسعد بن أبي وقاص». فتح الباري ١/ ١٥٢.

(١) علّقه في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، للإمام الحافظ ابن رجب ٢/ ٤٩٢.

الصحابة ﷺ النفاق، وهكذا المؤمن ينبغي له أن يخاف مما خاف منه الصحابة وأتباعهم.

قال الحسن البصري رحمه الله: «والله ما أصبح على وجه الأرض مؤمن ولا أمسى على وجهها إلا وهو خائف النفاق على نفسه، وما أمن النفاق إلا منافق»، رواه الإمام أحمد في كتاب الإيمان، قاله ابن رجب رحمه الله.

وروى الفريابي في كتابه «صفة المنافق» (ص١٢١) عن معلى بن زياد قال: سمعت الحسن في هذا المسجد يحلف بالله الذي لا إلٰه إلا هو، ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن. قال: وكان يقول: «من لم يخف النفاق فهو منافق»[(١)].

وكذلك المؤمن يخاف أن يحبط عمله ببعض الذنوب التي يفعلها وإن لم يعلم ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

---

(١) قال شعيب الأرناؤوط: رواه الفريابي عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان، عن المعلى بن زياد، عن الحسن، وهذا سند قوي. انظر: تحقيقه على جامع العلوم والحكم، لابن رجب ٢/ ٤٩٢.

فدلَّت الآيتان على أن المخالفات تبطل الأعمال، فيجب أن يحذر المؤمن من ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

فالذنوب تخون العبد في أحرج ما يكون، فيخشى أن تكون سبباً لسوء الخاتمة. نسأل الله العافية.

وفي «المسند» عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**ويل لأقماع القول، ويل للذين يصرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون**»(١).

وأقماع القول: الذين لا يتأثرون بما يسمعون من القول، آذانهم كالقمع يدخل فيها سماع الحق فيخرج كما دخل بدون تأثير.



(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/١٦٥.

مقويات الإيمان وثمرته

فالإيمان له جانبان: الاستمداد والإمداد، وثمرة وعوائد.

أما الأول فهو مهم جداً يجب أن يعتنى به غاية العناية، بل أمر ضروري، وذلك أن الإيمان هو كمال العبد وبه تعلو درجته في الدنيا والآخرة، وهو الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة ولا طريق إلى ذلك غيره، ولا يوجد ويقوى ويتم إلا بمعرفة مادته واستمداده، والله جلَّ وعلا جعل لكل مطلوب سبباً يوصل إليه، والإيمان أهم المطالب وأعظمها.

وجوانب الإيمان ومقوياته متعددة، **ويجمعها أمران: مجمل، ومفصَّل.**

أما المجمل: فهو النظر في آيات الله المنزلة المتلوَّة وتدبرها وتفهمها، وبذل الوسع في الوصول إلى ما أريد منها، والحرص الشديد على معرفة الحق الذي خلق العبد له مع التجرد من الموانع والعوائق التي تمنع من الفهم والوصول إلى المطلوب.

وكذلك دراسة سيرة رسول الله ﷺ والحرص على الاقتداء به في كل ما يستطيع العبد، وكذلك النظر والتدبر

لآيات الله تعالى الكونية. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ونظائر هذه الآية في كتاب الله تعالى كثير.

وأما المفصل: فأمور كثيرة؛ وأعظمها معرفة أسماء الله تعالى وصفاته التي تعرَّف تعالى بها إلى عباده بها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، والحرص على فهم معانيها، ثم عبادة الله تعالى بها. قال جلَّ وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فدعائه بها ـ تعالى ـ يكون بعد الفهم واعتقاد مدلولها.

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لله تسعاً وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة**»[(١)]، ومعنى «**أحصاها**»: حفظها وفهم معانيها واعتقدها وتعبَّد الله بها، وهذا يبين أن علم ذلك من أعظم ما يمد العبد بالإيمان ويقويه ويثبته. ومعرفة أسماء الله تعالى يتضمن أنواع التوحيد.

ومنها: تدبر القرآن، فإن تالي القرآن يزداد إيماناً وعلماً

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد، رقم الحديث (٦٤١٠)؛ رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم الحديث (٢٦٧٧).

وخشوعاً، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ويلحق به أيضاً تفهُّم أحاديث رسول الله ﷺ، فإنها وحي من الله تعالى، وفيها من العلم والهداية ما يزيد الإيمان ويقويه بشرط العمل وإخلاص النية.

ومنها: الإكثار من ذكر الله في كل وقت الدعاء بإلحاح وافتقار وذل لله تعالى؛ فإن ذكر الله تعالى يمد شجرة الإيمان في القلب ويغذيها، وبه يقوى إيمان العبد ويزداد وينمو، ودلائل ذلك كثيرة.

ومنها: الحرص على حضور القلب وخشوعه في الصلاة. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، فيستحضر ما يقوله في الصلاة من قراءة وذكر وأفعال يقوم بها من قيام وركوع وسجود، ويوقن أنه قائم بين يدي الله تعالى وأنه مطلع على ما في قلبه فيفرغه له ويجتهد في ذلك غاية ما يمكنه.

ومنها: الإكثار من نوافل الصلاة على هذه الصفة، فإن ذلك يحيي القلب ويمده بمدد الإيمان وألطاف الرب تعالى حتى تصبح حركات العبد وسكناته كلها عبادة، كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه**

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»[(١)].

فمن اجتهد بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل قرّبه الله تعالى إليه فأوصله إلى درجة الإحسان، فيعبد ربه كأنه يشاهده فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى وحبه وعظمته وخوفه، فتصير حركاته وسكناته كلها في طاعة الله، فإن نظر فنظره لله، وإن سمع فسمعه لله، وهكذا كل تصرفاته.

وكل الطاعات مقوية للإيمان وتزيد فيه وتثبته، ولهذا قال أهل السُّنَّة في تعريف الإيمان: «**يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية**»، فكل طاعة على السُّنَّة وخلصت فيها النيّة فهي زيادة في الإيمان.

وفي المقابل المعاصي كلها قوادح في الإيمان ومنقصات له، فيجب الحذر منها وحماية الإيمان منها.

أما فوائده وعوائده فلا حصر لها، فكم للإيمان من الثمرات العاجلة من حياة في القلب، وقوة في الحق، وصحة في البدن، وطيب عيش في الدنيا، وأنس بالله تعالى وطمأنينة، وأما في الآجل فهو الموصل بإذنه تعالى إلى رضا الله تعالى وجنته، وهذا أعظم الفوز ومنتهى السعادة. قال الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم الحديث (٦٥٠٢).

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وكل مؤمن تقي فهو من أولياء الله تعالى، الذين يرعاهم ويحميهم من كل من أرادهم بسوء من الجن والإنس؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الهدى والإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور الذكر واليقظة.

وبالإيمان يدافع الله تعالى عن أهله المكاره وينجيهم من الشدائد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، ولم يذكر المدافع مما يدل على العموم، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

اللَّهم حبّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا راشدين، آمين.

وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه



الفهرس